

## بطل بولندى

من أبطال الحرية والاستقلال

( صفحات من حياة الزعيم كوستيوشكو )

الأمة البولندية من الأمم التي امتحنها الأيام ، وصهرتها الخطوب .  
ومصير هذه الأمة الصبور المجاهدة منذ ذلك الحادث الفظيع المعروف في  
تاريخ أوربا الحديث باسم تقسيم بولندة الأول طالما أثار العطف عليها ،  
والمرثية لما أصابها . وقد ثبتت بولندة لنوازل الخطوب ، ولم تستطع  
القضاء على حيويتها الحروب المبيدة والثورات الدامية ، وقد احتملت  
عسف الروسيين وعنجهيتهم وسوء نيتهم ، وغشم البروسييين وغلظتهم  
وجشعهم ، وتخلت عنها أوربا في أشد أيام محنتها ، ولم تتقدم أية أمة من  
الأمم للأخذ بيدها في أكثر مراحل جهادها الشاق الطويل في سبيل  
الاستقلال والحرية .

وعلقت بولندة أملها في الخلاص على الجبار الكورسيكى نابليون ،  
وأخلصت له الولاء ، وشدت أزره فلم يف لها ، وضحي بها في سبيل

مطامعه ، وقد ثار البولنديون بظالمهم ثورات عدة كانت تحمد بقسوة رهيبة و بعد مجهود عنيف ، منها ثورة سنة ١٨٣٠ و ثورة سنة ١٨٦٣ ، ولست أنكر أن للبولنديين - كما لسائر الأمم - عيوبهم الخاصة التي جرت عليهم الأهوال واستوجبت صارم العقاب ، ولكن ما حل بهم من فواح الملمات لا يعادل أخطاءهم ، ولا يوازن نقائصهم ، فقد لقي هذا الشعب الباسل من حماقات الروس وفضاعات الألمان الشيء الكثير ، وكل أمة لها ماضٍ ماثور في الجهاد لنيل الحرية لا بد أن تزدان صفحات تاريخها بسير الكثيرين من أبطال الوطنية وقادة الحركات الثورية ، وتاريخ بولندا من هذه الناحية مفعم بجلائل الأعمال ونبيل المواقف وحوادث البطولة ، وفيه نلتقى بطائفة من أصحاب النفوس الكبيرة الأبية المطبوعة على البذل والفداء والاستشهاد .

### مطامع الروس في بولندا :

وقد أخذ الضعف يدب في بولندا منذ عهد ملكها الشجاع جون سويسكى الذى أجلى الأتراك عن أسوار فينا ، ورد غائلتهم عن النمسا في سنة ١٦٨٣ ، وكان سويسكى جنديا بارعا و بطلا مقداما ، ولكنه لم يكن ملكا عظيما ولا سياسياً قصى النظر ، فلم يستطع استئصال عوامل الضعف والفساد وبواعث الفوضى وتشعب الآراء ، وجلس على عرش بولندا بعده ملكان من أصل ألماني كانا لا يعبان بشؤون الدولة ولا ينهضان بأعبائها

بما ضاعف العلة ، وزاد في الارتباك ، فأخذت الجيوش الأجنبية تكسح بولنדה وتغزوها وتتدخل في نظام حكومتها وتوجيه سياستها ، وتعيث في أرضها فساداً . وكان نبلاؤها في شقاق دائم ، وكانت في حاجة إلى يد حازمة تركز فيها القوة وتكبح جماح عوادي الأهواء ، وكان جيران بولنדה الثلاثة وهم الروسي والنمسا وبروسيا يعملون على تعكير جوها وإقلاق راحتها ، ويأتمرون بها ، ويبيتون لها الشر ، وأخذ المفكرون من أنبائها المخلصين يلحون الهلاك المحقق المقبل ، ويرون نذر الشر والسوء .

وفي سنة ١٧٦٤ تسلم عرش بولنדה بمساعدة القيصرة كاترين الثانية نبيل بولندي اسمه « إستانسلاوس بونياوسكى » . وكان هذا الرجل أحد عشاقها الكثيرين . وكانت القيصرة كاترين ملكة بعيدة المطامع ، شديدة الدهاء ، واسعة الخيلة ، وقد سوت لها مطامعها الاستيلاء على بولنדה برمتها ، فأخذت تتحين الفرص لبلوغ غرضها . وقد أعانت إستانسلاوس على اعتلاء العرش لأنها كانت تعرف لين عريكته وسهولة انقياده . وكان إستانسلاوس ولوعاً بالفن ، مقبلاً على الأدب ، دمث الأخلاق ، ملماً بأداب المجتمع ، فشيّد قصرًا على الطراز الفرنسي في وارسو تحف به الحدائق الغلب ، وأقام به مسرحاً في الهواء الطلق تترقق إلى جانبه بحيرة ، وأنشأ مدرسة حربية لأبناء الأشراف عني بها وأشرف عليها بنفسه ، وكان من الذين تربوا بها وتخرجوا منها البطل البولندي كوستسيوشكو ، ولكن ملك بولنדה في تلك الفترة الدقيقة من حياتها وهي في مهاب المطامع ومعترك

الشهوات كان في حاجة إلى صفات أخلاقية أسمى من الشائيل الرقيقة ،  
والذوق المهذب المصقول . كان في حاجة إلى الإيمان القوى ، والإرادة  
الماضية ، والعزم الصلب . وكان إستانسلاوس في يد امرأة من طراز كاترين  
مثل الشمعة طواعية وليناً .

واستغلت كاترين الفرصة ، وأرسلت مندوباً من قبلها اسمه ربنين (Repnin)  
وكان رجلاً مزهواً قاسياً تسنده قوة روسيا . وكان البولنديون يعجزون  
عن مقاومته حتى أصبح الحاكم الحقيقي لبولندا . وقد حاول هذا الرجل  
إرغام مجلس النواب البولندي على إقرار وثيقة تمنهن حرية الشعب وتنزل  
به إلى مرتبة الرق والعبودية ، واعتقل النواب الذين امتنعوا عن إقرارها  
وأرسلهم إلى روسيا ، فلم يسع النواب الباقين إلا الإذعان .

وقد نجم عن ذلك حركة ثورية انضوى تحت لوائها ألوف من البولنديين  
ولم يكن للقائمين بهذه الحركة يدان بمقاومة الجيوش الروسية الجرارة  
فتوالت هزائمهم وعمدوا إلى حرب العصابات وعجز الروسيون عن سحقهم  
وحدهم ، فاشتركت معهم الجيوش البروسية والجيوش النمساوية وبذلك  
أخذت الحركة .

وتبع ذلك تقسيم بولندا بين روسيا والنمسا وبروسيا ، وأرادت كاترين  
أن تظهر ذلك التقسيم الجائر في الثوب الشرعي ، فأمرت صنيعتها الملك  
إستانسلاوس أن يجمع مجلس النواب البولندي ويأمر الأعضاء بإقرار ذلك  
التقسيم وهددته بالعزل إذا تلكأ أو أقام العقبات في سبيل إنجاز هذه

الخطة ، فلم يجترئ على مخالفتها ، وشر لإجابة طلبها ، فقد كان الرجل حريصاً على عرشه مستميتاً في الاحتفاظ به .

### ظهور البطل كوستيوشكو

وانحدرت بولنדה إلى درك البؤس والشقاء وسوء الحال . كان شبانها اليافعون قتلى في ميادين الجهاد ، وكانت بلادها قد انتهت وخربت ، ولم يكن لها جيش يصون كرامتها ويرد عنها الغوائل وقد أنشبت فيها الروسيون والبروسيون والنمساويون أظفارهم . وكان لكل منهم جيش نظامي ضخم . ولكن كل ذلك لم يلب من عزم البولنديين ، واتخذت مقاومتهم أسلوباً سلبياً . وقد تم ذلك التقسيم المنحوس سنة ١٧٧٥ . وقد انتقص هذا التقسيم من أطراف بولنדה ولكنه لم يفت في عضدها . وحاول البولنديون إصلاح شأنهم في الجزء الباقي لهم من بلادهم ، وجروا في ذلك شوطاً بعيداً فنهضوا بالأدب والفن ، وأنشأوا المصانع ، وأصلحوا نظم التعليم ، وجعلوا الملوكية نظاماً وراثياً ، وأبطلوا طريقة الانتخاب لأنها كانت تمهد السبيل للفوضى والدسائس الأجنبية ، وتحسنت حالة المزارعين وارتقى مستوى معيشتهم وفي سنة ١٧٩١ أصبح النظام الجديد نظاماً متبعاً وسنة مرعية . ولم ترق الروسيين هذه الحركة الإصلاحية الشاملة ، ففي سنة ١٧٩٢ غزت بولنדה جموع رروسيا ، وتبع ذلك مقاومة باهرة ودفاع مجيد من جانب البولنديين ، وكان يقود الجيش رجلان بولنديان ، أحدهما أمير صغير هو الأمير جوزيف بونياوسكى ابن أخى الملك إستانسلاوس والآخر

كوستسيوشكو ابن أحد المزارعين وأعظم رجل عرفته بولنדה فى أواخر القرن الثامن عشر ، ومن أشهر أبطالها الخالدين ورجالها البارزين .

وقد ولد تاديز كوستسيوشكى فى ناحية هادئة من نواحي لتوانيا ، وسجل له التاريخ أنه البطل الذى وقف حياته على إنقاذ بلاده ، ومدافعة أعدائها ، ونصرة قضيتها ، وقل أن تفتح كتابا فى تاريخ بولنדה دون أن يطالعك محياه المستوحش الغريب الذى يذكرنا بقول أبى تمام غربته العلى على كثرة الأهـل فاضحى فى الأقربين جنيبا

وقد نشأ فى جو من البساطة والتقوى ، وعاش عيشة الريف الصحية الوديدة فى منزل من الخشب ذى طابق واحد سقفه من القش والبوص وأروقته ممتدة مستطيلة . ومات أبوه وهو طفل فجاهدت أمه جهادا متصلا لترد عن المنزل عوادى الخراب وتنشئه نشأة صالحة . وكان يبدو أن تاديز سيعيش ويموت حامل الذكر ، خفى الشأن فى ظلال ريف ليتوانيا . ولكن القدر كان يدخر له شيئا آخر . فقد رآه أحد النبلاء ، وكان يعرف والده فلمح فيه مخايل النجابة ، ولوائح الهمة والإقدام ، فأرسله إلى المدرسة الحربية التى أنشأها الملك إستانسلاوس وكان يشرف عليها بنفسه . وكانوا يربون الطلبة فى هذه المدرسة تربية قومية تجعل فيها خدمة بلادهم صوب نظرهم . وكان طلبة هذه المدرسة يوضعون تحت الاختبار مدة سنة قبل أن يسمح لهم بحمل السيف ، فإذا أثبتوا أنهم جديرون بتقلده أقيم لهم احتفال يقسمون فيه بشرفهم على ألا يشهروا السيف إلا فى سبيل الدفاع عن بلادهم .

وقد زادت هذه النشأة النيران المتأججة في نفس تاديز ، وقد طالما وصفه أنداده في الدراسة بأنه أشدهم عناداً ، وأكثرهم صبراً على العمل وبذل الجهد ، وأن له نظرة آمرة وشخصية ساحرة .

وبعد تخرجه من المدرسة الحربية رحل إلى فرنسا ، وانقطع خمس سنوات لدراسة الهندسة ، وعاد إلى بلاده ، وكان ذلك عقب التقسيم الأول ، فوجد باب العمل لإنتقاذ بلاده مرتجاً وكانت أمريكا في ذلك الوقت تجاهد الإنجليز ، فأبحر هذا البولندي الصغير إلى العالم الجديد ليحارب في سبيل الحرية .

وظل في الميدان ست سنوات ، وساهم في إقامة الحصون على نهر الهدسن وصحب القائد جرين الذي كان يحارب في الجنوب في نواحي كارولينا ، واشترك في إنشاء الزوارق التي كان يعبر عليها الجنود فوق نواحي الأمواج ، وأنشأ في وست بويندت لنفسه حديقة صغيرة كان يمضي فيها سويعات فراغه مفكراً في بولنده ومصيرها ولا تزال آثار تلك الحديقة موجودة ومسماة باسم « حديقة كومتسيوشكو » .

ولما وضعت الحرب الأمريكية أوزارها ، وتحققت آمال الأمريكيين عرفوا له فضله وحسن بلائه ، فسربلوه الشرف ، وخصوه بالرعاية والتقدير ولكن لم يكن هناك ما يستدعي بعده عن بلاده ، فعاد إليها وعاش في ضيعته الصغيرة ، وأنشأ حديقة صغيرة كانت موضع عنايته وغرس فيها الأشجار بيده ، وكان يخاطب المزارعين ويواسيهم ويجبر بكرمه وصفاء

نفسه قلوبهم الكسيرة ، ويزور جيرانه ، ويخص صغارهم بسابغ عنايته ،  
وفائض بشاشته .

كوستسيوشكو يفرد أمة :

وتدقت الحوادث في مجراها تدفقاً سريعاً ، ولم تمكن كوستسيوشكو  
من أن يظل ناعماً في هدوء الريف . ففي سنة ١٧٩٢ هاجمت الجيوش  
الروسية بولنـدة فاستصرخته أمتـه ليقود الجيش مع الأمير جوزيف  
بونياتوسكى ، وبعد انقضاء شهرين على هذه الحرب التي أظهر فيها  
البولنديون الكثير من ضروب الشجاعة ، وتجلت فيها بطولة كوستسيوشكو  
أفسد الملك على الأمة البولندية أمرها باستسلامه للروسيين ، والتقى  
كوستسيوشكو هذا الجندي الصلب المتين البناء الشديد الأسر بالملك  
إستانسلاوس الرقيق الحاشية ، السرى الهيئة ، فدافع عن بلاده دفاعاً  
مجيداً وحاول عبثاً أن يرد الملك إلى صوابه ، ويبصره عواقب الإمعان في  
الاستسلام ، ولكنه كان يضرب في حديد بارد ، وحاول الملك أن يغريه  
ويجتذبه إلى صفة ، ولم يكن أمامه إذا أراد أن يسلم شرفه ويصون سمعته  
إلا أن يعرض عن الملك ويتنازل عن رتبته وثروته وأن يوطن النفس على  
احتمال آلام النفي والفقر والحرمان ، فأغمد سيفه واجتاز حدود بلاده  
المحبوبة ودعا الله أن يمكنه من العودة إلى حمل السيف دفاعاً عن وطنه .  
وسرعان ما حانت الفرصة ، فقد اتفق بعد انسحاب كوستسيوشكو مع طائفة  
من أحرار البولنديين أن روسيا وبروسيا قامتا بتقسيم بولنـدة بينهما مرة

ثانية . فأثار ذلك نائرة الشعب البولندي ، وجعل البولنديين يصممون على الاحتفاظ بالجزء الباقي لهم ، ويعملون على استرداد الأجزاء التي اغتصبها أعداؤهم بحمد السيف . وعقدت اجتماعات في جنح الليل ، وعلقت منشورات في الشوارع تدعو الناس إلى الثورة ، ولم تستطع الشرطة معرفة كاتبها ، واتجهت بولندا جميعها إلى رجل واحد أطمئن إليه وثق به وهو كوستيسوشكو ، فدعوه ليمتولى القيادة ، فقبل الدعوة وعاد إلى كراكاو .

الموت أو النصر :

واجتمع تحت لوائه الكثيرون من الرجال والنساء ، وقدموا أنفسهم ما يملكون من خيل ومال وجواهر كريمة ، وكان العمال والمزارعون وأصحاب المهن يجودون عن طيبة خاطر بما ادخروه من مال قليل ، وقد استطاع هذا الجيش الذي كان قوامه المزارعين أن يبدي براعة فائقة وأن يقوم بحركات حربية بديدة ، وكان كوستيسوشكو يهيب بهم في حومة الوغى فيلبون دعوته ويستجيبون لندائه ويحصدون الروسيين حصداً ، وكان شعار الجميع « الموت أو النصر »

ولم يكن إقبال الناس على التطوع في هذا الجيش بدافع الوطنية وحدها ، وإنما كان لشخصية كوستيسوشكو الجذابة المحبوبة أثر كبير في ذلك ، وكان يواصل عمله ليلاً ونهاراً ويضن على نفسه بالراحة القليلة ويظل ينظم الحركات ويضع الخطط ويكتب الكلمات المثيرة يستنهض بها العزائم ويستثير الحمية ، ويرسل الرسائل إلى مختلف الدول ليسترعى نظرها

ويكتسب عطفها ، وسرعان ما اشتبك جيشه الصغير القليل المعدات في معارك طاحنة مع الجيش الروسي الجرار والجيش البروسي المنظم الكامل الأهبة ، وكثرت الخسائر وتوالت الهزائم ولكن كوستسيوشكو كان رجلاً ركيناً لا يزدحمه النصر ولا تطير بلبه الهزيمة . وكان في خلال تلك الحركة هو حاكم بولندا المطلق فلم يغير هذا المركز الرفيع من أخلاقه ، وظل على بساطته المعهودة وتواضعه المحبوب ، وكان يعيش في إحدى خيم المعسكر ويأكل الخبز الأسود مثل سائر جنوده ويحتسى الجمعة ، وقد سأله أمير بولندي يملك مالا وضيعاً « لم لا تشرب النبيذ المعتق » ؟ فأجابته كوستسيوشكو « إنك تستطيع ذلك لأنك غني بعيد النفوذ ولكنني خادم بولندا المضطهدة ولا يجمل بي أن أنفق نقودها على مطالبى الخاصة » وكان رجاله يعتبرونه أخاً لهم ، وكان يلبس ملابسهم ويؤمهم في الصلاة ، واستمر جيشه يجاهد من شهر مارس إلى شهر يوليو ويلقى الانتصارات والهزائم .

وكان سكان وارسو قد ثاروا بالروسين حينما انتهت إلى أسماعهم أنباء الثورة التي تزعمها كوستسيوشكو وطردهوا الجيش الروسي من مدينتهم ، ولكن في أوائل يوليو كان الجيش الروسي والجيش البروسي يتقدمان نحو وارسو ، فأسرع كوستسيوشكو لإيقادها ، وبدأت حينذاك أعظم مخاطرة قام بها كوستسيوشكو ، وقد أثار حضوره الحماسة في نفوس المدافعين عن وارسو ، وكان الجميع يحتذون مثاله ويسرون سيرته ويتلقون وحي تفكيره ،

وبعد مضي ثمانية أسابيع طويلة حافلة نظر البولنديون من أسوار المدينة  
فأوا العدو ينسحب ويقوض خيامه ، ورفع الحصار ، وأنقذت المدينة .  
وعم السرور والابتهاج ، ولكن لم يطل أمد ذلك فقد كانت القيصرة  
كاترين الثانية تستعد لتقسيم بولندة الثالث ، وأرسلت إلى وارسو جيشاً  
ضخماً يقوده سواروف أعظم قوادها ، وعاد الجيش البروسي إلى محاصرة  
المدينة ، وخشى النمساويون أن يضيع نصيبهم من الغنيمة فبادروا إلى  
إرسال جيش ليشارك في الحصار واقتحام المدينة ، وصمم كوستسيوشكو  
على أن يخرج إلى أحد المعسكرات خارج المدينة ليهزم أحد الجيوش  
الروسية قبل قدوم سواروف ، وتحرك الجيش البولندي لمنازلة الروسيين  
ودارت أرحاء معركة شديدة بدأت من الصباح واستمرت طوال النهار ،  
وحارب البولنديون حرباً شديدة بشجاعتهم المعهودة بل فاقوا أنفسهم وأتوا  
بالخوارق في ذلك اليوم المأثور ، ولكن عدد الروسيين كان يفوقهم إلى حد  
كبير ، وكانت نيران المدافع الروسية تتساقط عليهم كالأمطار ، ونفدت  
ذخيرتهم ونال منهم الكلال ، فاخترق الروسيون صفوفهم وطوقوا الجيش  
البولندي ، وكثرت جراح كوستسيوشكو حتى سقط في الميدان فاقد الوعي  
وأسره ثلاثة من الضباط الروسيين ، وعاد الجيش الروسي إلى بطرسبرج  
ومعه كوستسيوشكو وغيره من الأسرى البولنديين . وظل كوستسيوشكو  
في السجن عامين ، وفي سنة ١٧٩٦ ماتت القيصرة كاترين ، وبعد موتها  
بأيام كان كوستسيوشكو مستلقياً في سريره لأنه كان لا يقوى على الوقوف

ولا على المشى فأدهشه أن يرى نقرأ من الناس يدخلون حجرتة ، وكان بينهم القيصر بولس الأول الذي كانت تنتابه من الحين إلى الحين الشاعر النبيلة وابنه الإسكندر الذي ارتقى عرش روسيا بعده وخادمه ، وعانق الإسكندر كوستسيوشكو وقال له القيصر بولس « لقد جئت لأطلق سراحك » وكانت مفاجأة شديدة الوقع ، فلم يدر كوستسيوشكو كيف يجيب ، ثم جلس القيصر وتحدث إلى كوستسيوشكو حديثاً طويلاً ، ولم يكن هناك ما ينسى كوستسيوشكو أمر بولندة فدافع عنها دفاعاً حاراً في حضرة عاهل الروس .

وبعد إطلاق سراحه زار السويد وإنجلترا وأمريكا وفرنسا وكان أينما حل يقابل بالترحاب ويلقى الرعاية من أعظم الرجال وأجمل النساء وتقدم له الهدايا ، ولم يكن الرجل يعنى بشيء من هذا فقد كانت حالة بلاده لا تبرح مخيلته ، وقضى أيامه الأخيرة في سويسرة . وكان جميع الفقراء في الأقاليم المجاورة لمكان إقامته أصدقاء له فقد كان يحمل إليهم الصدقات من دخله القليل . وكان يعيش في عزلة تامة ، وبعد موته حملت بقاياها إلى مدينة كراكو وأقام له مواطنوه نصباً تذكاريًا في ظاهر المدينة ولا تزال ذكراه ناضرة في نفوس مواطنيه إلى اليوم وستبقى كذلك ما بقي اسم بولندة .